التجربة الأخلاقية



د. حامد طاهر

ابن حزم أحد أعلام الفكر الأندلسى (توفى سنة ٤٥٦ هـ) وهو شخصية متعددة المواهب ، فهو فقيه ، وأصولى ، ومؤرخ ، ومنطقى ، ومحدث ، ومصلح اجتماعى ، ومحلل نفسى ، وشاعر .. وقد أثبت كفاءته فى كل الميادين التى كتب فيها ، وبرهن بالتالى على سمة التواصل بين فروع الثقافة الاسلامية .

ففى مجال الفقه تبنى المذهب الظاهرى ، وأصبح علما عليه ، بل كان أكبر المدافعين عنه فى العالم الاسلامى كله . وله فى هذا المجال كتاب « المحلى » (عشرة أجزاء) وفى أصول الفقه ترك لنا كتابه القيم « الاحكام فى أصول الأحكام » (٤ أجزاء) . وفى التاريخ العربى ألف كتابا موثقا عن أنساب العرب ، أما فى علم الحديث فقد جمع كل الأحاديث والروايات التى تتصل بحجة الوداع التى قام بها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قبل وفاته . وفى مجال مقارنة الأديان كتب مؤلفا يعتبر من أهم المصادر فى هذا المجال بعنوان « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » وفى مجال المنطق قام بمحاولة تلخيص منطق أرسطو بطريقة متفردة عن كل من سبقوه فى كتاب بعنوان « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه بالألفاظ العامية والأمثلة الشرعية » وفى مجال الاصلاح الاجتماعى والتحليل النفسى ترك لنا ابن حزم كتابه النادر « طوق الحمامة » الذى يتناول فيه تحليل ظاهرة الحب ، من وجهة النظر الاسلامية ، والذى ترجم الى معظم لغات العالم .

ومن بين الروائع الكثيرة التى تركها ابن حزم توجد رسالة صغيرة الحجم بعنوان « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » [1] .

---

(١) حققها وقدم لها بدراسة ممتازة الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكى . دار المعارف ١٩٨١ وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى دراستنا .

يقول مطلعهـا :

« أما بعد ، فإنى جمعت فى كتابى هـذا معانى كثيرة ، أفادنيها واهب التمييز ، تعالى ، بمرور الأيام ، وتعاقب الأحوال ، بما منحنى عز وجل ، من التهمم بتصاريف الزمان [١] ، والاشراف على أحواله ، حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه ، عـلى جميع اللذات التى تميل اليها أكثر النفوس ، وعلى الازدياد من فضـول المـال ، وزممت كل ما سبرت [٢] من ذلك بهذا الكتاب ، لينفع الله به من يشاء من عباده ، ممن يصـل اليه ، بما أتعبت فيه نفسى ، وأجهدتها فيه ، وأطلت فيه فكرى ، فيأخذه عفوا ، وأهديته اليه هنيئا ، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المـال ، وعقـد الأملاك ، اذا تدبره ، وييسره الله ، تعالى ، لاستعماله ، وأنا راج فى ذلك من الله تعالى ، أعظم الأجر لنيتى فى نفع عباده ، واصـلاح ما فسد من أخلاقهم ، ومداواة نفوسهم » [٣] .

والمتأمل فى هـذه المقـدمة يمكنه أن يقف على عـدة عناصر منهجية تتميز بها جميع كتابات ابن حزم تقريبا . منها : تحـديد مصـدر المـادة العلمية التى ضمنها المؤلف كتابه ، وهى هنا عبارة عن تجاربه الشخصية ، وتأملاته الخاصـة فى الحياة والناس من حوله . ومنهـا : بيان أهميـة الموضـوع الذى يتناوله ، وأنه أفضل من جميع اللذات التى تميل اليها أكثر النفوس ، وأغلى من كنوز المال ، وعقـد الأملاك ، ومنها : الاشارة الى الجهد المبذول فى هـذا العمل ، وأنه قـد استغرق أكثر عمر المؤلف ، وشغل جانبا هاما من تفكيره ومراجعته ، ولا شك فى أن عبارته « حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى » تدل بوضـوح على أن هـذا الكتاب يأتى — من الناحية التاريخية — فى الجزء الأخير من قائمة مؤلفات ابن حزم . ثم ان من

---

(١) التهمم بتصاريف الزمان : الاهتمام بأحواله المختلفة .
(٢) زممت كل ما سبرت : جمعت أو قيدت كل ما اختبرته .
(٣) الأخلاق والسير ، ص ٨٣ — ٨٥ .

أهم العناصر المنهجية أيضا : ذكر الغرض من التأليف ، وهو أن يضع كتابا مركزا يحتوى على مجموعة من التجارب والنصائح الأخلاقية لكى يتدبرها القارىء ، فقد يوفقه الله تعالى الى استعمالها فى سلوكه • وأخيرا فان الدافع وراء هذا العمل ، لم يكن كما هو الحال لدى كثير من المؤلفين القدماء — تقربا الى عطف سلطان ، أو تحقيقا لرغبة صديق عزيز ، وانما هو كما يحدده ابن حزم : رجاء فى أجر عظيم من الله تعالى ، لأن نية المؤلف انما هى لنفع الناس ، واصلاح ما فسد من أخلاقهم ، ومداواة نفوسهم •

وهكذا فنحن أمام محاولة ، فى المجال الأخلاقى ، تتجه الى كل انسان ، يمكنه أن يقيس بنفسه مدى نجاحها أو فشلها بمجرد ملاحظة رد الفعل الذى يحدث من تأثيرها فيه •

ثم بعد المقدمة ، تتوالى فصول الكتاب ، التى تبلغ ١٢ فصلا ، مصدرة بالعناوين التالية :

— فصل فى مداواة النفوس واصلاح الأخلاق •

— باب عظيم من أبواب العقل والراحة •

— فصل فى العلم •

— فصل فى الأخلاق والسير •

— فصل فى الاخوان والصداقة والنصيحة •

— فصل فى أنواع المحبة •

— فصل فى أنواع صباحة الصور •

— فصل فيما يتعامل الناس به ، وفى الأخلاق •

— فصل فى مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة •

— فصل فى غرائب أخلاق النفس •

— فصل فى تطلع النفس الى ما يستتر عنها من كلام مسموع ، أو شىء مرئى ، أو الى المدح وبقاء الذكر •

— فصل فى حضور مجالس العلم •

ولسنا نميل الى اعتبار هذه العناوين من وضع ابن حزم نفسه ، ويحتمل أن تكون من وضع بعض تلاميذه ، أو نساخ كتبه • ويلاحظ أنها لا تعبر بدقة عما يوجد فى داخل الفصول ، بل يمكن القول بأن هذه العناوين ، بالاضافة الى عنوان الكتاب نفسه ، قد أساءت كثيرا لمضمون الكتاب ، وحولت أنظار القراء عن بعض نظرياته المبتكرة ، وأفكاره العميقة ، وقصرته على كونه مجرد كتاب عادى فى الحكم والمواعظ الأخلاقية • الأفضل اذن أن ندع عناوين الفصول جانبا ، وأن نتناول ، بقدر من التأمل والتحليل ، محتوى الفصول ذاتها ، حتى نتعرف على تلك المحاولة االفريدة التى قدمها ابن حزم فى مجال الأخلاق الاسلامية •

ولكى نتبين بوضوح محتوى الرسالة الأخلاقية التى أراد ابن حزم أن يوجهها للمعاصرين ، وللأجيال اللاحقة له ، يمكننا تصنيفها فى الأقسام الثلاثة الآتية :

أ — الاعترافات الأخلاقية •

ب — مجموعة الحكم •

ج — نظرية جديدة فى الأخلاق •

وفى رأينا أن هذه الأقسام الثلاثة تمثل عناصر التجربة الأخلاقية التى مر بها ابن حزم أصدق تمثيل • فهناك أولا الاعترافات الأخلاقية وهى تعبر عن مرحلة البحث واكتشاف حقيقة الذات • وفيها توصل ابن حزم الى بعض جوانب النقص فى شخصيته ، وبتحديدها ، والاعلان

عنها ينتقل ابن حزم من انسان منفرد يسعى الى اصـلاح نفسه ، الى مصلح أخلاقى يهتم بخير الآخرين • يقـول : « ولهـذا يجب أن تؤرخ الفضـائل والرذائل ، لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ، ويرغب فى الحسن المنقول عمن تقدمه ، ويتعظ بما سلف » (١) ثم هناك ثانيـا مجموعة الحـكم وهى عبارة عن خلاصـة مركزة لخبرة عميقة فى الحياة ، واحتكاك مباشر مع المجتمع • وسوف نختار من بينها بعض الأمثلة التى تكفى لوضع ابن حزم بين مصاف الحكماء العالميين الذين برزوا فى هـذا اللون • وأخيرا تأتى النظرية الجديدة التى يقدمها ابن حـزم فى مجال الهـدف النهائى من الحياة الأخلاقية ، وهى نظرية « طرد الهم » التى يمكن أن تحل محـل نظرية « السـعادة » اليونانية ، والتى تبناها بعض فلاسفة المسلمين بالفعل ، ولكنها ظلت عرضة للكثير من أوجه النقـد ، أما نظرية ابن حزم فيؤكد لنا أنها صالحة للتطبيق على الانسان فى كل زمـان ومكان •

أولا : اعترافات ابن حـزم :

اذا كانت الاعترافات الذاتية نادرة فى تاريخ الفكر الانسانى ، فأندر منها الاعترافات الأخلاقية • ومرجع ذلك لسبب بسـيط : هو أنه اذا كان الخطأ العقلى مسموحا به لدى طبقـة المفكرين ، فإن الخطأ الأخـلاقى مرفوض تماما من المجتمع كله • ألسنا نسمع مثلا أن (الاعتراف بالخطـأ فضـيلة) والمفهوم طبعا هو الخطأ العقلى ، ويعلمنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن المسلم اذا اجتهد برايه فأصاب فله أجران ، فإن أخطـأ فله أجر واحـد • وهـذا معناه أنه مثاب على حالتى الصواب والخطأ ، والمقصـود أيضا هو الشخص الذى يتصـدى لاصـدار الفتوى فى مسألة دينية • لكننا على العكس من ذلك ، لا نكاد نسمع شيئا عن أن تصريح الانسان بأخلاقه السيئة يحتوى على أية فضـيلة • بل إن الاسلام يحض

---

(١) الأخلاق والسير ، ص ١٩٥ •

المسلم على أن يدارى سيئاته (اذا بليتم فاستتروا) وكأنما يقصـد بذلك أن يحصر الرذيلة فى أضيق نطاق ممكن ، وبهـذا يصـبح السكوت عنهـا نوعا من مقاومتهـا •

غير مقبول اذن أن يكون التصريح بالعيوب موضـع افتخار وتحـد للمجتمع لأنه يعود بالضرر المؤكد على النشىء ، الذين يميلون بطبعهم الى محاكاة ما يوجـد أمامهم من مظاهر الشذوذ والغرابة (١) • لكن أن تذكر العيوب الأخلاقية بهـدف أن يتعظ بهـا الآخرون ، حتى يدركوا أن من يتصـدى لوعظهم ، واصـلاح أخلاقهم بشر مثلهم ، يتعرض لما يتعرضون له من لحظات الضعف الانسانى ، وتتسلط عليه من الأهواء والنوازع فى بعض الأحيان ما يتسلط عليهم • فهذا شىء مختلف ، بل انه اسلوب ممتاز فى جـذب النفوس الى الموعظة الحسنة ، والسيرة المستقيمة • يقـول ابن حـزم :

« كانت فى عيوب ، فلم أزل بالرياضـة ، واطـلاعى على ما قالت الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحـكماء المتأخرين والمتقدمين فى الأخـلاق ، وفى آداب النفس ، أعانى مداواتها •• حتى أعـان الله ، عز وجل ، على أكثر ذلك بتوفيقه ومنـه •

وتمام العـدل ، ورياضـة النفس ، والتصرف بأزمة الحقائق : هو الاقرار بهـا ، ليتعظ بذلك متعظ يوما ان شاء الله •

— فمنها : كلف فى الرضـا (٢) ، وافراط فى الغضـب :

---

(١) من المعروف ان نسـبة الجريمة تزيد كثـيرا بين الشـباب الذين يشاهدون أفلام العنف والجريمة . وقد ثبت بالاحصائيات أن معظم الجرائم التى يرتكبها هؤلاء الشباب تحاكى الى حـد كبير — وأحيانا بصورة حرفية — ما يشاهدونه فى السينما والتليفزيون .

(٢) يعنى رغبة شديدة فى أن يرضى عنه الآخرون .

فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك اظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط ، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار ، وتحملت من ذلك ثقلا شديدا وصبرت على مغص مؤلم ، كان ربما أمرضنى ..

وأعجزنى ذلك فى الرضا ، وكأنى سامحت نفسى فى ذلك ، لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم .

— ومنها : دعابة غالبة :

فالذى قدرت عليه فيها امساكى عما يغضب المازح ، وسامحت نفسى فيها اذ رأيت تركها من الانغلاق ، ومضاهيا للكبر .

— ومنها : عجب شديد :

فناظر عقلى نفسى بما يعرفه من عيوبها ، حتى ذهب كله ، ولم يبق له ، والحمد لله ، أثر . بل كلفت نفسى احتقار قدرها جملة ، واستعمال التواضع .

— ومنها : حركات كانت تولدها غرارة الصبا ، وضعف الأعضاء : فقصرت نفسى على تركها فذهبت .

— ومنها محبة فى بعد الصيت والغلبة :

فالذى وقفت عليه من معاناة هذا الداء الامساك فيه عما لا يحل فى الديانة ، والله المستعان على الباقى ...

— ومنها افراط فى الأنفة ، بغضت الى انكاح المحارم [1] جملة بكل وجه ، وصعبت ذلك فى طبيعتى .

---

(١) يعنى تزويج بناته وأخواته للآخرين .

وكأنى توقفت عن مغالبة هـذا الافراط الذى أعرف قبحه لعوارض اعترضت على ، والله المستعان •

— ومنهـا حقـد مفرط :

قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره ، وغلبته على اظهار جميـع نتائجه ، وأما قطعه البتة فلم أقـدر عليه ، وأعجزنى معه أن أصـادق من عادانى عداوة صحيحة أبدا (١) •

— وأما سوء الظن •

فيعده قوم عيبا على الاطلاق ، وليس كذلك ، الا اذا صاحبه مالا يحل فى الديانة ، أو الى ما يقبح فى المعاملة ، والا فهو حزم ، والحزم فضيلة (٢) •

— وأما الزهو ، والحسد ، والخيانة •• فلم أعرفها بطبعى قط ، وكأننى لا حمد لى فى تركها ، لمنافرة جبلتى (طبيعتى) اياها » (٣) •

وهكذا بمثل هـذا الوضوح والصراحة ، يقـدم ابن حزم نفسـه لنا عارية من الأقنعة التى يندر أن يخلعها الانسان أمام الآخرين • فاذا نظرنا الى هـذه الاعترافات من وجهـة النظر العلمية الخالصة ، وجـدنا ان ابن حزم قـد وصل الى مرحلة عالية من التحليل النفسى الذاتى ، استبطن فيه مكونات شخصيته ، وكشف عن نوازعها واتجاهاتها ، ووضع يده على مواطن العيوب ، وأوجه النقص •

ومن المعروف أن الطبيب النفسانى لا يفعل مع مريضـه أكثر من أن يصحبه فى رحلة عميقة داخل ذاته ، حتى يكتشـفا فى النهاية معـا أسباب العقـد النفسـية التى عندما تترك بدون كشف تصبح مرضـا خطيرا يفسد

---

(١) أى صعب على مصادقة اعدائى باخلاص كامل .
(٢) الأخلاق والسير ص ١٢٩ — ١٣٤ .
(٣) السابق : ص ١٤٠ — ١٤١ .

التوازن ، ويحطم الشخصية • أما اذا تم اكتشافها وجرى الحديث عنها فان الأمر يختلف ، وبالتدريج يتخلص منها المريض ، وتبدأ عناصر شخصيته السوية تتوازن داخل المجتمع ، ويصبح أكثر قدرة على التأقلم فيه من جديد •

ومع ذلك ، فنحن هنا أمام تجربة رائدة ، يكتشف فيها صاحبها بنفسه جوانب النقص فى شخصيته ، ثم يعلنها للآخرين بقصد تحذيرهم منها ، وارشادهم الى أفضل الطرق لمعالجتها •

ثانيا : مجموعة الحكم :

اذا كانت الأمثال (جمع مثل) هى خلاصة فلسفة عامة الناس ، ومستودع تجاربهم الطويلة ، فان الحكم (جمع حكمة) يمكن اعتبارها خلاصة فلسفة المفكرين • وهى تتمثل عادة فى عبارات مركزة ، ولكنها قوية ومعبرة ، وتحمل من المعانى أكثر مما فيها من الألفاظ ، ومن المعروف أنه لا يقدر على صياغتها سوى قلة قليلة من قادة الفكر ، وذوى الرأى الثاقب ، وأهل الخبرة الطويلة [١] •

ومما يلاحظ بصفة مبدئية على هذا اللون من الفلسفة المختصرة أنه يوجد تقريبا لدى كل الشعوب ، وأن هذه الشعوب تكاد تلتقى على كثير من مبادئه وقيمه • والسبب بسيط : فهو عبارة عن تسجيل ملاحظات العقل الانسانى لما يمر به من تجارب ، قد يبدو من حيث الظاهر أنها مختلفة ومتنوعة ، ولكنها فى الحقيقة متشابهة • فالحب والعطف والوفاء تماما مثل الكراهية والقسوة والخيانة حقائق ثابتة على مر العصور ، ورغم اختلاف الأماكن ، ولكن مظاهرها الخارجية هى التى تتعدد وتتنوع وتختلف •• فاذا أضفنا لذلك أن العقل الانسانى عندما يمر باحدى

---

(١) وهى بعينها التى يقصدها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فى قوله « أوتيت جوامع الكلم » أى الكلمات القليلة العدد الجامعة لصنوف الحكمة .

هـــذه التجارب ، فانه قــد يخـــدع أولا بمظهرها الخارجى ، وقد يقف طويلا لديه ، ولكنه اذا تعمق التجربة ، وحاول اكتشاف جوهرها وجـــد نفسه وجها لوجه أمام حقيقتها الثابتة التى لا تتغير .

وقد ورث المسلمون حضارات الأمم السابقـــة عليهم ، واستوعبوا معظم الثقافات التى كانت منتشرة فى أرجاء العالم القديم ، ولا شك أنهم وقفوا على هـــذا اللون من الفلسفة أو الحكمـــة المركزة . وقـــد أعجبوا به ، ونقلوا الكثير منه الى اللغة العربيـــة ، فصانوه بذلك من الضياع (١) . لكن جهودهم لم تقتصر على ذلك ، فقد ساهموا هم أيضـــا فيه ، ومازال تراثهم فى هـــذا المجال بحاجة الى الجمـــع والتصنيف ، فضلا عن دراسته وتحليله . وحسبنا هنا الآن أن نتوقف لدى ابن حزم ، الذى ترك لنا فى كتابه الصغير الحجم الذى نعتمد عليه فى هـــذه الدراسة ، عددا لابأس به من الحكم الأخلاقية ، والتى ســـوف نقتطف منها مجموعة كافية فى دلالتها لاثبات أننا أمام مفكر عميق ، وفيلسوف خبر الحياة ، واستخلص من أحداثها المتغيرة والمنقطعة موقفا أكثر ثباتا واستمرارا .

— لا مرؤة لمن لا دين لـــه (١) .

— العاقل لا يرى لنفسه ثمنا الا الجنة (٢) .

— من قدر أن يسلم من طعن الناس وعيوبهم فهو مجنون (٣) .

— أنظر فى المـــال والحال والصحة الى من دونك ، وانظر فى الدين والعلم والفضائل الى من فوقك (٤) .

---

(١) انظر مختار الحكم ومحاسن الكلم للمبشر بن ابى فاتك (القرن الخامس الهجرى) تحقيق د . عبد الرحمن بدوى . ط ثانية ، بيروت ١٩٨٠ .
(٢) الأخلاق والسير ص ٩٣ .
(٣) السابق ، نفس الصفحة .
(٤) الأخلاق والسير ص ٩٤ .
(٥) السابق ، ص ١٠٥ .

— اذا تكاثرت الهموم سقطت كلها [١] .

— طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها [٢] .

— أول من يزهد فى الغادر من غدر له الغادر ، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به ، وأول من تهون الزانية فى عينه الذى يزنى بهـا [٣] .

— كثرة وقوع العين على الشخص يسهل أمره ويهونه [٤] .

— لا يغتر العاقل بصداقة حادثة لـه أيام دولته ، فكل واحـد صديقه يومئذ [٥] .

— ثق بالمتدين وان كان على غير دينك ، ولا تثق بلمستخف وان أظهر أنه على دينك [٦] .

— نوار الفتنة لا يعقد [٧] .

— لا يخلو مخلوق من عيب ، فالسعيد من قلت عيوبه ودقت [٨] .

— استبقاك من عاتبك ، وزهد فيك من استهان بسيئاتك [٩] .

— العتاب للصديق كالسبك للسـبيكة ، فإما أن تصـفوا وإما أن تطـير [١٠] .

---

(١) السابق ص ١١٣ .
(٢) السابق ص ١١٤ .
(٣) السابق ص ١١٨ .
(٤) السابق ص ١١٩ .
(٥) السابق ص ١٢٠ .
(٦) السابق ص ١٢٠ .
(٧) السابق ص ١٢٠ ، ويعنى أن زهور الفتنة لا تخرج ثمرا .
(٨) السابق ص ١٤٢ .
(٩) السابق ص ١٤٣ .
(١٠) السابق ص ١٤٣ .

— لا تنصح على شرط القبـول ، ولا تشفع على شرط الاجابة ، ولا تهب على شرط الاثابة ، لكن على سبيل استعمال الفضل ، وتأدية ما عليك من النصيحة ، والشفاعة وبذل المعروف (١) .

— قد يكون المرء صديقا لمن ليس صديقه (٢) .

— الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع (٣) .

— أشـد الناس استعظاما للعيوب بلسانه هـو أشدهم استسهالا لهـا بفعله (٤) .

— اقنع بمن عندك يقنع بك من عندك (٥) .

— الطمع سبب كل هم (٦) .

ثالثا : نظرية طرد الهم :

لكى ندرك مدى الجـدة فى نظرية ابن حزم لابد من القاء نظرة سريعة على المذاهب الأخلاقية التى سبقته ، مركزين بصفة خاصـة على الغاية أو الهدف النهائى من الحياة الأخلاقية .

فى الفكر الاغريقى ، نجد أن غاية الأخلاق لدى السفسطائيين تنحصر فى تحقيق اللذة الفردية لكل انسـان . أمـا سقراط فقد جعل هـذه الغاية هى السعادة . ولكى نصل الى السعادة لابد أن نمارس الفضيلة ، التى تنتج عن المعرفة . أى أنه لكى يكون الانسان فاضـلا لابد أن يكون

---

(١) السابق ص : ١٤٧ .
(٢) السابق ص : ١٤٨ .
(٣) السابق ص : ١٧١ .
(٤) السابق ص : ٢٣٦ .
(٥) السابق ص : ١٧٤ .
(٦) السابق ص : ١٧١ .

عالمـا • ولا شك فى أن هـذا المفهوم يقصر الفضيلة ، وبالتالى السعادة ، على قلة قليلة من المجتمع [1] •

كذلك قرر أفلاطون أن غايـة الحياة الأخلاقية هى السعادة لكنـه يجعلها تقترن بالعدالة أى الاعتدال فى الأمور ، ولا يتحقق الخير الأسمى للانسان الا اذا أدرك عالم المثل ، الـذى يعتبر عالمـا الأرض نسخـة مشوهة منـه [2] •

ولدى أرسطو ، الذى كتب مؤلفا مستقلا فى الأخـلاق ، أصبحت الأمـور أكثر تحديدا • فقد جعل الخير الأسمى هـو غاية الأخـلاق • ومفهومه أنه الخير الذى يطلبه الناس جميعا لذاته ، ولا يرجون من ورائه شيئا آخر ، وقد حدده أيضا بأنه السعادة • وتتحقق السعادة عنده بالتأمل العقلى • أما الفضيلة فقد عرفها بأنها : « وسط بين طرفين » هما التفريط والافراط • ومعنى ذلك أن تكون الشجاعة مثلا حالة وسط بين التهـور والجبن ، والكرم وسط بين الاسراف والتقتير •• وهكذا [3] •

وفى العصر الهللينى ظهرت بعض المذاهب الأخلاقية التى انبثقت بالضرورة عن مذاهب فكرية وفلسفية مختلفة ، هى الابيقورية (اتبـاع ابيقور) والرواقية ، ومذهب الشك • وعلى الرغم من الخلافات الدقيقة بينها ، فانها تلتقى جميعا فى حصر السعادة فى الجانب العقلى أو الروحى ، واهمال جانب الجسـد ، واحتقار الحياة المـادية بكل أنواعها • ويلاحظ أن مفهومها للسعادة يشيع فيه الاتجاه السلبى بمعنى أن الانسـان يبتعد عن المجتمع ليسلم من شروره ، وينصرف عن الحياة المـادية ليتخلص من مصـائبها [4] •

---

(١) Charles Warner, La Philosophie Grecque p. 42, 54. Payot, Paris 1969.

(٢) السابق ، ص ٨٢ •

(٣) السابق ، ص ١٢١ ، ١٤٧ •

(٤) السابق ، ص ٢٣٣ •

وقد ظل هــذا الاتجاه الفكرى والأخلاقى سائدا بين أصحاب هذه المذاهب حتى ظهــرت المسيحية ، واستقرت ، فتغلب مفهومهــا للحــياة الأخلاقية • وهو مفهوم يقوم أساسا على أن السعادة التى يسعى اليهــا الانسان فى هذه الحياة سعادة وهمية ، لأن السعادة الحقة انما هى فى ملكوت السماوات • وهذه النقطة هامة جــدا لأنها تفصل بصورة حاسمة بين التصورات الاغريقية وما تلاها وبين التصــور المسيحى • ولا شــك فى أن حياة الســيد المسيح قدمت للمفكرين الأخلاقيين نموذجا رائعا فى شتى جوانبه • لكنهم ركزوا بصفة خاصة على ما جــاء فى تعاليمه مــن التواضع ، والمسامحة ، والعفو عن الاساءة (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) وهذا منتهى النبل الانسانى فى معاملة المسىء [١] •

لكن الأخلاق المسيحية تبدأ من مسلمة أخرى أيضا هى أن الانسان فى الواقع يعيش نتيجة خطيئته الأولى أو الأصلية ، لذلك فانه مطالب منذ اللحظة الأولى لميلاده بأن يكفر عن هــذه الخطيئة ، ولهــذا فانه يعيش محملا بعقدة ذنب ، لم يرتكبه ، ومدركا أنه ذو طبيعة رديئة ، يجب عليه أن يصارعها باستمرار • وهو يتسلح فى خلال ذلك بالصــلاة ، واخلاص النوايا (تحتل النية مكانة أكبر بكثير من الفعل) والتحرر من الأهــواء والنوازع البشرية ، مع الاعتقاد بأن الانسان لن يمتلك السعادة قط على هــذه الأرض المليئة بالشرور والخطايا ، وانما فقط يمكنه أن يحس بها ؛ ولا ينتج هــذا الا من الأمــل فى عفــو الله ورحمته التى تســع جميع المذنبين [٢] •

ومن المعروف أن فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن مسكوية والغزالى قد تبنوا بعض النظريات الاغريقية الخاصة بالهدف الأخير من الأخلاق ، واختاروا فكرة السعادة باعتبارها هى الغاية الأسمى التى يسعى الناس

(١) Pierre Adnès, La théologie Cotholique, p. 84, Paris 1967.

(٢) انظر : الدكتور توفيق الطويل ، فلسفة الاخلاق ص ١٣٠ وما بعدها ط ثانية ١٩٧٦ القاهرة .

جميعا الى بلوغها ، ويطلبونها لذاتها أى دون أن تكون هى الأخـــرى وسيلة لغرض آخـــر [١] •

لكن ابن حزم يطالعنا فى كتابه « الأخلاق والسير » [٢] بنظرية جديدة حـــول غاية الأخلاق ، وهو يحددها فى مصطلح جديد تماما هو « طرد الهم » ويؤكد أنه قد توصل بخبرته الطويلة وتجاربه الى أن هـــذا الغرض يصلح أن يكون هدفا أسمى للحياة الأخلاقية • وللتدليل على صحة رأيه ، يؤكد ابن حزم أنه وجد أن الناس جميعا على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم يسعون الى بلوغ هذا الهدف ، ويتفقون على أنه هو غرضهم ، فى حين أن أى هـــدف آخر — بما فيه السعادة — يمكن أن يكون محل خلاف بينهم • يقول ابن حـــزم :

« تطلبت غرضا يستوى الناس كلهم فى استحسانه ، وفى طلبه ، فلم أجـــده الا واحـــدا ، وهـــو طرد الهم • فلما تدبرته علمت أن النـــاس كلهم لم يستووا فى استحسانه فقط ، ولا فى طلبه فقط ، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم ، وتباين هممهم وارادتهم لا يتحركون حركة أصلا الا فيما يرجون به طرد الهم ، ولا ينطقون بكلمة أصـــلا الا فيمـــا يعانون به ازاحته عن أنفسهم : فمن مخطىء وجـــه سبيله ، ومن مقارب للخطأ ، ومن مصيب وهـــو الأقل من الناس ، فى الأقل من أموره •

فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها ، مذ خلق الله تعالى العالم الى أن يتناهى عالم الابتداء [٣] ويعاقبه عالم الحساب على ألا يعتمدوا بسعيهم شيئا ســـواه ، وكل غرض غيره ففى الناس من لا يستحسنه •

اذ فى الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة •

---

(١) D. M. Donaldson, Studies in muslim ethics, p. 97, 98. London 1953.

(٢) تستغرق الصفحات ٨٧ — ٩٣ •

(٣) المقصود عالم الدنيا .

وفى الناس من أهل الشر من لا يريد الخـــير ، ولا الأمن ، ولا الحق .

وفى الناس من يؤثر الخمول بهواه وارادته على بعد الصيت .

وفى الناس من لا يريد المـــال ، ويؤثر عدمه على وجوده ، ككثير من الأنبياء عليهم السلام ، ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة .

وفى الناس من يبغض اللذات بطبعه ، ويستنقص طالبها ، وفى الناس من يؤثر الجهل على العلم ، كأكثر من ترى من العامة .

وهذه هى أغراض الناس التى لا غرض لهم سواهـــا .

وليس فى العالم مذ كان الى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ، ولا يريد طرده عن نفســـه » .

هذا — اذا أمكن القول — هو الشق الأول من نظرية ابن حزم . وقد حدد فيه بوضوح الهدف الأساسى والنهائى من الحياة الأخلاقية ، مؤكدا على عمومية هذا الهدف أو عالميته ، وصلاحيته لكل زمان ومكان .

لكن يبقى النصف الثانى ، وهو يتمثل فى توجيه الانسان الى تحقيق هـــذا الهـــدف ، وارشاده الى الطريق المؤدية اليه . وفى هـــذا يقـــول ابن حـــزم :

« فلمـــا استقر فى نفسى هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى هـــذا السر العجيب ، وأنار الله تعالى لفكرى هـــذا الكنز العظيم ، بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة الى طـــرد الهم ، الذى هو المطلوب للنفس ، الذى اتفق جميع أنواع الانسان ، الجاهل منهم والعالم ، والصالح والطالح ، على السعى لـــه ، فلم أجدها الا : التوجه الى الله ، عز وجل ، بالعمل للآخرة .

والا ، فانما طلب المـــال طلابه ليطردوا به هم الفقر عن أنفسهم .

وانما طلب الصوت (الصيت) من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها •

وانما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها •

وانما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل •

وانما هش الى سماع الأخبار ومحادثة الناس ، من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحيد ، ومغيب أحوال العالم عنه •

وانما أكل من أكل ، وشرب من شرب ، ونكح من نكح ، ولبس من لبس ، ولعب من لعب ، واكتن (استتر فى منزل) من اكتن ، وركب من ركب ، ومشى من مشى ، وتودع من تودع ••• ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم •

وفى كل ما ذكرنا ، لمن تدبر ، هموم حادثة لابد لها من عوارض تعرض فى خلالها ، وتعذر ما يتعذر منها ، وذهاب ما يوجد منها ، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة ، وأيضا نتائج سوء تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك ، من خوف منافس ، أو طعن حاسد ، أو اختلاس راغب ، أو اقتناء عدو ، مع الذم والاثم ، وغير ذلك •

ووجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب ، خالصا من كل كدر ، موصلا الى طرد الهم على الحقيقة •

ووجدت العامل للآخرة ان امتحن بمكروه فى تلك السبيل لم يهتم ، بل يسر ، اذ رجاؤه فى عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب ، وزائد فى الغرض الذى اياه يقصد •

ووجدته ان عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم ، اذ ليس مؤاخذا بذلك ، فهو غير مؤثر فى ما يطلب •

ورأيته ان قصـــد بالأذى سر ، وان نكبته نكبة سر ، وان تعب فيما سلك فيه سر ، فهو فى سرور متصل أبدا ، وغيره بخلاف ذلك أبدا .

وأخيرا يلخص ابن حزم نظريته المبتكرة بجانبيها اللذين يتضمنان الهدف والوسيلة فى قوله :

« فاعلم أنه مطلوب واحد ، وهو طرد الهم .

وليس له الا طريق واحد ، وهو العمل لله تعالى .

فما عدا هــذا فضلال وسخف » .